مفهوم الثقافة ووظائفها

مفهوم الثقافة (لغة واصطلاحا، عند العرب وعند الغرب)

لغة: الثقافة من الفعل ثقف الشيء، ثقفا وثقافا وثقوفة أي حذفه ويقال ثقف الشيء وهو سرعة التعلم، ثقف الرجل أي صار حاذقا.[1]

اصطلاحا: عرفها تايلور على أنها ذلك الكل المركب من المعارف والفن والأخلاق والقانون و الأعراف وكل ما اكتسبه الانسان بوصفه عضو في مجتمع ما.[2]

مفهوم الثقافة عند العرب: جاء في معجم اللغة العربية المعاصر أن: الثقافة هي العلوم والمعارف التي يدركها الفرد، ومجموع ما توصلت إليه أمة أو بلد في مختلف الحقول من أدب وفكر وعلم وفن وصناعة بهدف استنارة الذهن[3].

إذا ما تتبعنا الاستعمالات التي أوردها المفكرون العرب لمفهوم الثقافة والألفاظ المشتقة منه مثل ثقف، ثقاف، مثاقفة، لتبين لنا أن هذه الاستعمالات تتصل بدلالات ذات ارتباط بالتقنية والتسوية والتشذيب والتهذيب والتأديب وغير ذلك من الألفاظ المشابهة.

كما ورد في التبيان والتبيين عند الجاحظ أن لفظ ثقيف له دلالة تتضمن التلقين المعرفي والتهذيب السلوكي معا، وتقابل دلالة الهوج تقابل تضاد.

وقد أورد ابن قتيبة في عيون الأخبار دلالة تفيد بأن عملية الثقافة تدل على تخليص الشيء وتنقيته من خبثه وكدورته مثلما يخلص المعدن من الرغام.

كما استعمل التوحيدي في الامتاع والمؤانسة لفظ مثاقفة ليدل على مطارحة الالوان المعارف والمناقب بين المثقفين ، بحيث تعود محصلة تثاقفهما تحصيل الفائدة المعرفية والسلوكية لكليهما.

كما نجد ابن حزم قد استعمل عبارة ثقاف العقل في التقرب الى حد المنطق بدلالة يفيد التخليص العقل من الخلط الحاصل في فهمه، على أساس نبذ الأساليب غير البرهانية فيه، وهو عين ما استعمله الغزالي في معيار النظر أي تهذيبه واقامته على البرهان.[4]

يستفاد من محصلة هذه الاستعمالات وغيرها ، أن العرب قد عرفوا مفهوم الثقافة والألفاظ المشتقة منه، بما له خصوصية، وبالدلالة التي تعني تخليص الشيء من خبثه وكدورته أو تسويته وتشذيبه، أما حين يتعلق الأمر بالأشخاص فهو يعني التهذيب والتأديب كما يربط الناحيتين السلوكية والمعرفية معا من غير تفكك وعليه يتعلق المعني بتصقيل النفس بالعلوم النافعة وتصفيتها بالأخلاق الحميدة، الأمر الذي يستدعي المعايرة والتقويم. وبهذا يتبين أن المفهوم في أصله معروف عند العرب حتى في دلالته المتطورة، وأنه ليس كما ساور الظن بعض الباحثين.

مفهوم الثقافة عند الغرب:

انحدر لفظ CULTURE في الانجليزية من لفظ CULTUS اللاتيني، ال>ي يفيد في أصله العبادة والولاء التبجيلي، ثم تطور معنى اللفظ ليستعمل في الدلالة على زراعة التربة أو استنباتها، خلافا لذلك كان بعض كتاب القرن الثامن عشر مثل فولتير أول من استعمل هذه الكلمة بصورة مطلقة، اذ جاز القول بأن أضفوا عليها معنى شحذ الفكر وبلورته.[5] ثم تطور المفهوم ليدل على عملية نماء العقل والخلق، كما جاء في قاموس وبستر بأن الثقافة تعني التعليم التهذيب.

وظائف الثقافة

تؤدي الثقافة عدة وظائف مهمة بالإضافة لوظيفتها ك" هوية " حسب أهم تفسير انثروبولوجي لها، لعل أهمها باعتبارها مجموعة أنشطة اجتماعية هي:

الوظيفة المعرفية: إذ يعتبر العقل أداة الوعي في المعرفة والتفسير، إلا أن مصادره التي تغذيه مختلفة متنوعة، فهي حسية تتعلق بالحواس الخمسة، أو إدراكية تتعلق بانطباعات المرء عن الأشياء والحوادث ويقسم كارل بوبر في كتابه أسطورة الإطار مصادر المعرفة إلى مصدرين لا ثالث لهما.

- **أسطورية - ثقافية:** تتعلق بالموروث الثقافي العام في الدين والتراث، وهي معرفة لا يقينية غير قائمة على دلائل قاطعة، مع ذلك يتناقلها العامة على نحو يقيني كحقائق مطلقة غير قابلة للجدل(مقدسة في أغلب الأحيان).[6]
- **عقلانية** : تتعلق بالعلم والمعرفة وخلاصة التجربة العلمية البشرية الرصينة وهي معرفة مؤسسة على النقد حيث تتعرض الأفكار القديمة لنقد ، الأفكار الأحدث ، فيجري عليها التعديل دائمًا إلى درجة أن العلم كما عرَّفه فرنسيس بيكون، يصبح ككيان ومحتوى متجددًا متغيرا بوتيرة أسرع وأقوى وأكثر ثباتًا من التبدلات البطيئة التي تحصل في بنية وتكوين الأسطورة والموروث الثقافي العام[7]

وظيفة سد الفراغ: لقد أدت الثقافة دورا بدائيًا عند الإنسان الأول في تعميم الخبرة الاجتماعية والمعرفة وهذا ما سدَّ ذلك الفراغ العاطفي النفسي والعقلي لدى البشر لمعرفة العالم والإنسان وإيجاد التفسير لكل شيء وبناء أنظمة سلوكية معينة تخدم الفرد والجماعة. لذلك تعد الثقافة، من هذه الزاوية" إشغالا مؤقتا " للوعي بمفاهيم تعمل على إيجاد التوازن في عقل الفرد البشري الواحد الناشئ عن القلقَ الذي تسببه آليات التساؤل والاستفسار عن كل شيء، الذي جبل عليهما الإنسان .وعليه يمكن تشبيه الدور الذي لعبته الأسطورة بدور" الحليب "الذي يتناوله الرضع لحين تهيئة أمعائهم لهضم الطعام الصلب بعد شهور، وهو ما يقابل العلم الرصين النقدي العقلاني، الذي لابد أن يحتل مقام الثقافة في التاريخ البشري ، ليتداخل مع أسلوب الحياة والنظام، فلا تبقى الثقافة مبهمة الغاية غير منطقية الدلالة، وهذا يعني، أن عموم وظائف الثقافة هي" الإشغال المؤقت "كبديل عن العلم، والهوية التي تميز جماعة من الناس، كتعبير عن وجودهم وفق أسلوب معين يميزهم عن سواهم من الجماعات تمهيدًا لليوم الذي يتقبل فيه كل البشر مفهوم" وحدة النوع الإنساني " وخلق الحضارة البشرية الكلية، خاصة في ظل حركة الثقافة أو ما يعرف ب" الديناميكا الثقافية"، لأن" هناك حالة من "الاندماج الثقافي"، فانتقلت الملامح الفيزيقية، وهاجرت العناصر والسمات الثقافية، وعن طريق عملية" الاحتكاك الثقافي "وبذلك انتشرت الثقافة الآسيوية وانتقلت السمات الإفريقية[8].

الوظيفة المعرفية لا تزال تلعب الثقافة دورا هاما في تحديد طبيعة تفكير الأفراد في بعض المجتمعات وتعتبر من أهم عوائق تقدمها نذكر كمثال عن ذلك الوعي الجمعي الإسلامي العام، الذي لم يتقبل، إلى هذه اللحظة، مسألة أن الوظيفة المعرفية الأسطورية للثقافة هي وظيفة قديمة وبدائية وغير معصومة عن الأخطاء، بل هي أكثر من ذلك أحيانا فتكون عشوائية وتفاعلية كانعكاسات مع البيئة ، لكنها، رغم ذلك، تتسلل إلى الفرد الذي جبل بوعيه على تحصيلها في حياته كعلم، ذلك أن منطقة التداخل بين العلم والدين في هذا الوعي ما ت ا زل سميكة وواسعة، فنجد شرائح واسعة في عالمنا الإسلامي لا تقبل فكرة أن العلوم الإنسانية الصرفة ليست لها أية صلة بالدين والموروث الثقافي العام، ويجب الفصل بينها للوصول إلى علم" موضوعي "حقيقي قادر على النهوض[9].

علاقة الثقافة بالحضارة

أولا: مفهوم الحضارة: لغة: جاء في لسان العرب لابن منظور – أن الحضارة تعني الإقامة في الحضر وهي ضد البداوة.[10]

وفي الشعر العربي قال القطامي التغلبي يفتخر بالبداوة:

فمن تكن البداوة أعجبته فأي رجال باديا ترانا

ويتجلى مفهوم الحضارة من خلال ما سبق في أن الحضارة هي خلاف البداوة أي سكان البدو والمدن كما يؤكد هذا المعجم الوسيط أن الحضارة ضد البداوة والحضر هم سكان المدن والقرى والحاضرة تعني القوم الحضور وحاضرة الشيء القريبة منه[11]، وفي القرآن الكريم جاءت كلمة حاضرة بهذا المعنى (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر..) سورة الأعراف الآية 163.

اصطلاحا: لا يخرج عن المعنى اللغوي: (هي مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني ومظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي)[12].

يرى ابن خلدون أن الحضارة هي غاية العمران، ونهاية لعمره ومؤذنة لفساده وأنها غابة للبداوة وأن العمران كله من بداوة وعمران وحضارة وملك وسوقه له عمر محسوس ، وذلك أن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران ، دعاهم بطبعه إلى مذهب الحضارة والتحلق بعوائدها.

يقرن ابن خلدون الحضارة بالعمران ومدة بقائه دون أن يعبث الزمن بمعالمه أو يمحو آثاره وبالتالي يتمكن من معرفة الحضارات السابقة فالعمران مقياس أساسي للتقدم الحضاري. ومعيار يقاس به قوة الحضارة وهو الأب الروحي الذي يتبناها فالعمارة تدعو الإنسان الى الحضارة وتجذبه إليها ، عكس البداوة التي لا تحتاج الى الترف وتحتفظ بالبساطة في العمران وغيرها من أصناف الفنون وسائرها[13].

كما يرى المفكر الكبير مالك بن النبي _ أن الحضارة هي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد في كل طور من أطوار حياته المساعدة الضرورية،[14] ولا يختلف كثيرا عن الحضارة عند ابن خلدون

ولكن يضيف إليه عامل آخر وهو الشروط الأخلاقية التي تتيح لكل فرد أن يساهم في إنشاء حضارة بمساعدة العوامل المادية كالعمران وغيرها.

يضيف حسن مؤنس أن الحضارة هي ثمرة كل جهد قام به الإنسان لتحسين ظروف حياته سواء كان الجهد المبذول للوصول الى تلك الثمرة مقصود أو غير مقصود وسواء كانت الثمرة مادية أو معنوية، كما يتحدث حسن مؤنس عن أهمية الانسان بوصفه عنصرا أساسيا في بناء الحضارة فهو مركزها ومنشئها بسعيه المتواصل لتحسين ظروفه كالاختراعات وتسهيل أموره المعيشية وسعيه الحثيث للتطور والبحث عن سبل العيش الكريم.[15]

بينما يرى ويل ديورانت أن الحضارة هي: نظام اجتماعي يعين على الزيادة من إنتاجه الثقافي وأن الحضارة تتألف من أربعة عناصر: الموارد الاقتصادية، النظم السياسية، التقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون.[16]

الحضارة هي من تعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي ويمكن القول أنها تتألف من أربعة عناصر مهمة، الأرض وما تحتويه من موارد مادية واقتصادية، والإنسان الذي ينظم هذه الموارد ويمارس السياسة الرشيدة لبناء هذه الحضارة، وتساهم التقاليد الحلقية في تشييد هذا الصرح ودون أن ننسى العلوم والفنون التي تضفي شرعيتها لأي حضارة، فكلما زاد المنتج العلمي والثقافي حازت الحضارة على البقاء والخلود.[17]

أما تايلور فيرى أن الحضارة هي ذلك المركب الذي يحتوي على المعلومات والمعتقدات، الفنون والقيم الأخلاقية القوانين والتقاليد وأية إمكانيات أو عادات يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في مجتمع ما.[18]

ثانيا: الحضارة والثقافة:

يتواشج مصطلح الحضارة civilization مع مصطلح الثقافة culture عند بعض العلماء، حيث يرى أزوالد شبنغلر: أن الحضارة لها علاقة بالثقافة، فالثقافة هي مرحلة من النمو ، وإذا وصل الأمر إلى الحضارة فهي النهاية. إن الحضارة هي الكينونة الواعية لنظام عضوي ضخم واحد، نظام لا ينحصر فقط في المادة والأساطير والتقنية والفن بل اللغة والتاريخ[19] فكثيرا ما يحدث تداخلا بين المفهومين فلا يفرق كثيرا من الباحثين بينهما حيث يعتبر البعض أن تاريخ البشرية ذات الثقافة المشتركة وما تنتجه من نتاج علمي وفني وعمراني وعليه تكون الحضارة اطار أشمل من الثقافة وان كانت ناتجة عنه.

يذهب هربرت سبنسر الى القول(بأن الحضارة هي الثقافة العامة الكلية التي تسود المجتمع الكبير من حيث هو وحدة متكاملة ، ومن هذا المنطلق فإن الحضارة هي نفسها الثقافة)[20]

تتماهى الحضارة مع الثقافة حيث تظهر على أنهما وحدة متكاملة لا يمكن لها أن ينفصلان وهذا ما نجد أنه يخالف الصواب فلطالما تتعرض الحضارة للتراجع والانهيار، لكن الثقافة لا تموت إلا إذا ماتت اللغة وأبسط مثال الحضارة الإسلامية ورغم سقوطها في الأندلس وما بعدها لكنها لاتزال كما هي ثقافة عربية وإسلامية.

أما أرنولد توينبي يجعل الحضارة تختلف عن الثقافة فكلمة حضارة ترتبط بعمليات خلق جماعية لها بعض الاتباع ، ويميز هذا الباحث بين التي يرى أن بعضها عرفت ثقافات ولم ترق الى خلق حضارة مثل مجتمعات افريقيا السوداء[21].

نجد أن الثقافة ليست غاية نهائية أو هدف مثالي تتطور نحوه البشرية بل هي مرحلة لا تؤسس بناء قيمي ثابت دائم يدخل في تكوين الثقافة الكلية للنوع الانساني المشترك ولا يمكن لها أن ترقى لترسيخ معالم حضارة خالدة فالثقافة لا تعني بالضرورة هي من يصنع الحضارة، فثقافة الشعوب تتواجد ولا تندثر.

ويستخدم علماء الانتربولوجيا كلمة ثقافة أكثر من الحضارة لأنها تشير إلى أسلوب الحياة السائدة في المجتمع بصرف النظر عن درجة تقدم هذا المجتمع أو ذاك أو حتى تخلفه وإن كان هذا لا يمنع من أن بعض كتاباتهم تستخدم كلمة حضارة للإشارة إلى التنظيمات الأكثر تعقيدا أو تفاضلا.[22]

والجدير بالذكر أن هناك اختلاف بين الباحثين في تحديد مجالات الحضارة فهناك من جعله قاصرا على نواحي التقدم المادي مثل أصحاب الفكر الالماني، ومنهم من جعله شاملا لكل أبعاد التقدم كالفكر الفرنسي.